لماذا تعانى اللغة العربية فى الوقت الراهن؟

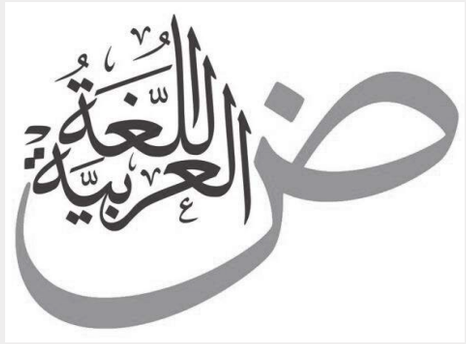

ربما من ولد فى قرية فى جنوب مصر مثلى وعاش فيها سنوات عمره الأولى ولم ينقطع عن زيارتها بشكل دورى كل عام، عليه ألا يشعر بأن اللغة العربية تعانى، وهو يرى حرص أهالى قريته وما يجاورها من قرى على إرسال أبنائهم إلى الكتاتيب فيحفظونه كاملا وهم دون العاشرة. وكذلك حرص هؤلاء الأهالى بالتبرع بالأراضى والأموال بجمعهم من بعضهم البعض من أجل بناء المعاهد الأزهرية لينخرط أبناءهم فى التعليم الأزهري.

يدلل هذا الجانب فى عمق المجتمع المصرى على الأقل فى محافظات الجنوب بشكل واضح على أن اللغة العربية لا تعاني. فهل يمكن أخذ هذا المظهر للقول بأن اللغة العربية ما زالت بعافيتها وعنفوانها. أما القول بأن العربية الدينية ـــ إن صح التعبير ـــ أو المرتبطة بجانب الدين هى التى مازالت فتية وقوية وتشهد إقبالًا كبيرًا لا يستطيع أن ينكره عاقل. لنأتى السؤال الأهم هنا. ماذا عن بقية جوانب اللغة العربية الأدبية والاجتماعية والعلمية. التى تتفاوت فيها اللغة العربية قوة وضعفًا بشكل كبير.

فإذا نظرنا إلى الجانب الأدبى فعلى مدار أكثر من ١٦ قرنًا من تاريخ اللغة العربية حظى الشعر بالمكانة الأكبر فيها والاحتفاء والتقدير وعليه كانت تعطى الأعطيات والخلع والهدايا والمكانة الاجتماعية الأدبية الكبيرة وكان تلك المكانة لها أسبابها المنطقية من حقبة لحقبة، وتفاوتت جماليات هذا الشعر عبر هذه الحقب. أما السرد فقد أخذ مسارين ناحية رسمية وأخرى شعبية، فى الناحية الرسمية اقتصر السرد على فنون أدبية بعينها مثل الرسائل والمقامات والتأريخ باللغة تحتفى بالسجع والجناس فى محاولة لأن يكون النثر صنو الشعر المقفى فى الموسيقى خاصة مع أمة تحتفى بالشفاهة والسماع أكثر من القراءة والتدوين ـــ والشواهد على ذلك كثيرة ـــ، فكان الاهتمام بالألفاظ نفسها ووقعها على أذن السامع كبيرًا ربما أكبر من الاهتمام بالمضمون فى حد ذاته مما عطل من سلاسة السرد.

أماعن السرد الشعبى فكان أفضل حالًا وأكثر تحررًا وخيالا من الإبداع السردى الرسمى خاصة مع السير الشعبية عنترة، حمزة البهلوان، الزير سالم، الظاهر بيبرس...إلخ وحكايات ألف ليلة وليلة، فقد قطعت هذه الفنون المهمشة وغير المعترف بها رسيمًا شوطًا كبيرًا نحو السلاسة السردية مع الأخذ فى الاعتبار أن هذه السير والحكايات كانت تروى بشكل شفاهى فى قصور الخلفاء وفى الأسواق والمقاهى أى أن العنصر المتعلق بالموسيقى اللفظية ظل ملازمًا لها؛ لكن من ناحية أخرى كان المضمون الحكائي، بل إن هناك نموذجًا فريدًا استطاع الجمع ما بين سلاسة السرد والتخلى عن الصنعة اللفظية وكتبت بأسلوب أقرب إلى السرد الروائى المعاصر يتمثل فى سيرة حمزة البهلوان.

ومع حالة التردى التى مر بها العالم العربى والإسلامى ضعفت اللغة العربية بصورة كبيرة فى كل جوانبها الأدبية، وأصبحت الزخرفة اللفظية الغالبة عليها فى شعرها ونثرها، ويظهر ذلك بوضوح فى النماذج الموجودة لهذه الحقب خاصة بعد سيطرة المماليك الذى كان اهتمامهم الأكبر بأمور الجند لا الأدب فهم فى الأصل عبيد تم جلبهم من بيئة غير عربية وهم صغار وجرت تربيتهم تربية عسكرية فى المقام الأول ولم تكن العربية وفنونها الأدبية من دائرة اهتمامهم فى زمن كان اعتماد الأدباء والشعراء فى المعاش على ما يمنح إليهم من ولاة الأمور. ومع دخول العثمانيين إلى مصر اشتدت أزمة اللغة العربية فى جانب الأدبى فالعثمانيون الذين لم يهمشوا اللغة العربية وحدها بل همشوا العالم العربى كله فى جميع مناحى الحياة. خاصة وأن اللغة العربية لم تكن لسان الأتراك، واقتصار دورهم فى الدول التى وقعت تحت سيطرتهم على حمايتها عسكريًا وجمع الضرائب من هذه البلاد دون أى دور اجتماعى يسهم فى خلق حركة علمية أو أدبية تواكب المتغيرات التى لحقت بالعالم فى ذلك الفترة بل عزلتهم عنها تمامًا ولم يبق إلا بصيص من نور يقدمه الأزهر الشريف؛ لكنه لم يكن يشفع لإعادة إحياء للغة لا شعرًا ولا نثرًا. حتى حدثت الصدمة التى تلقها المصريون والعرب على يد الحملة الفرنسية وعلى إثرها أدركوا حقيقة واقعهم المرير فى شتى المجالات يظهر ذلك الضعف فى الكتب التى وصلت إلينا من هذه الفترة.

وفى عصر محمد على عمل كثير من الرواد الذى ابتعثهم إلى الخارج على نقل ما تعلموه إلى المصريين وبدأت هذه النهضة اللغوية شعرًا فن العرب الأول مع مدرسة «الإحياء والبعث» الذى يكشف اسمها بوضوح عما جرى للغة العربية الأدبية. وفى هذه الفترة أيضًا نشأ الصراع الذى ما زال حيًا حتى الآن بين العامية والفصحى خاصة مع الفنون الأدبية المستحدثة ولم تكن موجودة من قبل التى تعتمد على الحوار وعلى رأسها المسرح بصورته الغربية الذى بدأ مع يعقوب صنوع بالعامية المصرية حتى إن رفاعة رافع الطهطاوى ترجم مسرحية هيلانة الجميلة قبله بلغة تخلط بين العامية والفصحى، وله رأى فى هذه المسألة ودعا إلى التصنيف والكتابة بالعامية فى بعض المسائل التى تتعلق بالعامة. فيما قام تلميذه محمد عثمان جلال بترجمة مسرحيات راسين وموليير بالزجل العامى المصري. ومع دخول الإنجليز مصر ودعوة المستشرقين لتنحية الفصحى والعمل على تطوير العامية اشتدت حدة الصراع بين الفصحى والعامية وأخذت بعدًا دينيًا وقوميًا فى الآن ذاته، بوصف أن هؤلاء المستشرقين يهدفون من خلال دعوتهم تلك إلى تصفية الإسلام نفسه بإبعاد الناس عن اللغة التى نزل بها القرآن الكريم ما كان له أثر عكسى فى نفوس المصريين وربطوا ما بين العامية والبعد عن الدين.

ومع ظهور القومية المصرية ودعوات أحمد لطفى السيد إلى ما يطلق عليه التمصير أخذت العامية المصرية فى بداية القرن العشرين فى الصعود لكن الفصحى كانت أيضًا خطت خطوات جادة وقوية خاصة فى الجانب الشعرى والمدارس الشعرية المختلفة التى ظهرت فى هذه الفترة وما تلتها. أما السرد فكان آخذ فى طريقه للتشكل يعمل على التخلص من الرطانة اللفظية والمحسنات البديعية، سواء فى لغة الصحافة التى كان له دور بارز فى تطوير السرد العربى أو مع فن الرواية والقصة القصيرة.

وواصلت الحركة السردية العربية نضجها عبر عقود أسفرت عن فوز أحد أدباء العربية على جائزة نوبل للآداب فكان من حيثيات منح الجائزة له «أسهم فى تطور اللغة الأدبية فى الأوساط الثقافية على امتداد العالم الناطق بالعربية». وكان أول فائز بهذه الجائزة لغته الأم هى العربية. وحظيت الثقافة العربية بعدد من الكتاب والروائيين الكبار الذى يمتلكون أدواتهم الإبداعية بشكل مدهش ومتفرد، حول الأمة العربية لأول مرة فى تاريخها الرسمى من الشعر إلى السرد حتى سادت العبارة التى أطلقها الدكتور جابر عصفور وعبرت عن هذه المرحلة التى نعيشها بأننا نعيش فى زمن الرواية. مع الأخذ فى الاعتبار كما ذكرنا آنفًا أن الثقافة الشعبية قد احتفت بالسرد منذ القدم عبر سيرها وحكاياتها الشعبية. لكنها كان ينظر إليها من النخبة على أنها متدنية القيمة، وربما يعاقب من يقرأها من قبل آبائهم كما كشف عن ذلك طه حسين سواء فى سيرته أو فى روايته دعاء الكروان وغيرها من الأعمال. إذا فى إن اللغة العربية تتمتع بالقوة سواء فى جانبها الدينى أو الأدبى وتعافت فى القرن الأخير من عوامل الضعف الأسلوبية التى لحقت بها على مدار قرون لكن لماذا اللغة العربية تعانى رغم أنه يصل عدد المتحدثين بها إلى نحو نصف مليار، وهى لغة الطقوس الدينية لنحو مليار ونصف مسلم حول العالم.

وفى ظننا أنها تعانى لأنها تحولت إلى لغة محلية، وليست لغة عالمية، لغة ضعيفة من الناحية العلمية ليس لديها ما تقدمه سوى فى الجانبين الدينى والأدبي، محصورة على الناطقين بها أو من يدينون بالإسلام. فى عصر توغلت فيه التكنولوجيا الرقمية تتعمق أزمة اللغة العربية ففى القرن الماضى كانت المجامع العربية قادرة على تعريب المنتجات الغربية المستحدثة ولم تكن موجودة من قبل مثل الثلاجة والغسالة أو حتى القطار الذى أخذوه من قطار الجمال القديم؛ لكن الآن بات من الصعب على اللغة العربية ملاحقة كل هذه التطورات الحادثة التى جعلت هناك لغة عالمية موحدة يتعامل بها العالم كله أى كانت لغته والمتمثلة فى اللغة الإنجليزية. وفى هذا تتشارك اللغة العربية مع لغات العالم بيد أنها تختلف بأن اللغات الأخرى مثل الفرنسية والألمانية لديها ما تقدمه بلغتها، ولا يتعلم أبناؤهم العلوم الطبيبة المختلفة والهندسية بلغة أجنبية لأنهم مشاركين فى صنع هذه العلوم ولهم إسهاماتهم فيها وهو ما تفتقده اللغة العربية تمامًا مما يجعل منها فى هذا المضمار لغة تابعة غير قادرة على التخلص من هذه التبعية.

ويقودنا الحديث عن التبعية إلى مسألة جانب أخر من الجوانب التى تعانى منها اللغة العربية ويتمثل فى الجانب الفكرى غير قادرة حتى الآن التعبير عن هويتها التى تسمح لها بمواكبة التطورات الحديثة. وتتجلى هذه التبعية لدى كثير من المترجمين غير المنغرسين فى الثقافة العربية بإرثها الثقافى الطويل، وعلى الجانب الآخر مولعين بالثقافة التى ينقلون عنها يتماهون معها فى كثير من الأحيان، وهو الحادث أيضًا مع عدد المثقفين والكتاب يتحدثون بلسان عربى لكن بتفكير غربى لا يتناسب مع طبيعة المجتمعات العربية، مما يجعل الثقافة العربية الحديثة فكريًا غارقة بين اتجاهين متعارضين الأول منفصل عن الثقافة العربية يريد هدمها والسير على غرار النموذج الغربى المتقدم واتجاه معارض يوغل فى التراث والتاريخ العربى ويعمل على إعادته بزمنه القديم لا وفق لمقتضيات الواقع المعاصر. أحدهم يرفع شعار تجديد الخطاب الثقافى والدينى بغرض هدمه وآخر يشكك فى نوايا هؤلاء الذين يراهم يستهدفون الدين. حلقة مفرغة يدور فيها العقل العربى منذ القرن التاسع عشر وحتى الآن لم يستطع تجاوزها.

د. عبدالكريم الحجراوي